زهد أبي العلاء

للأستاذ أحمد محمد الحوفي

توطئة

بواعثه : العمى ، موت والديه ، الفقر ، البيئة ، الثقافة ، الميل

مظاهره : العزلة ، رأيه فى الفطرة ، سخطه على الحياة ، العزوبة وكره النساء ، نباتى ، الجبر ، الخشونة والاكتئاب والقناعة .

الشاعر الفيلسوف احمد بن عبد الله ، بلده المعرة ، وهى قرية صغيرة فى شمال سورية بين حلب وحمص ، ولد سنة ٣٦٣ وتوفى سنة ٤٤٩ هـ فأدرك القرنين الرابع والخامس وهما أغنى عصور الأدب والعلم وأحفلها بالثقافة المنوعة .

تتلمذ فى المعرة لأبيه وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى حلب يطلب العلم ، وكانت تشرق بالعلماء والأدباء والفلاسفة منذ اجتذبهم اليها سيف الدولة ، ثم سافر الى أنطاكية وانتفع بنفائس كتبها ، ثم ارتحل إلى طرابلس ، ومر باللاذقية فنزل فى دير فيها ، وتأثر براهب متفلسف هناك وأخذ عنه كثيرا من الآراء ، وبعد ذلك شخص الى بغداد عش العلوم والآداب ، ووعى ماشاء من مكاتبها ، وشارك فى نواديها العلمية والأدبية ، وأعجب به علماؤها وأعجب بهم ، وقضى هنالك سنتين لم تمح السنون من نفسه ذكرياتهما ، وكان لهما أثر فى نضج عقله وسعة ثقافته ، ثم عاد الى المعرة ولزم منزله وانقطع للتفكير والتأليف إلى أن مات .

بواعث زهده

(١)

فجع أبو العلاء فى بصره طفلا ، فشب فى عالم حالك الظلمة ، لا يميز مليحه من دميمه ، ولا قبيحه من وسيمه ، يتحسس فى وجهه ندوب الجدرى ، ويحس قصوره عن الناس ، فهم مبصرون وهو كفيف ، يسمعهم يتحدثون عن الأرض والسماء ، ويقرأ للأدباء افتتانهم فى وصف الطبيعة والجمال فتاخذه من ذلك حسرة ، وليس فى الحياة آلم من فقد البصر ، على أنه كان حساسا وشاعرا يجسم خياله بلواه ، ويمضه التفكير فى نصيبه التعس من الحياة

(٢)

ثم حرمه الموت عطف أبيه فى الرابعة عشرة ، وفقد الاب نكبة على من هم فى سن أبى العلاء ، ونكبة مضاعفة على ذى العاهة ، فقد كان أحوج إلى أبيه يعتمد عليه ، ويستند اليه ، ويعتز به ، ويتناسى فى بحبوحة عطفه آلام عماه ، ثم يستنير بتوجيهه العلمى والادبى ، فإنا نعرف أن أباه كان أستاذه الاول .

لهذا حزن عليه حزنا ملك قلبه ، فقال يرثيه :

فليت فمى إن شام سنى تبسمى فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن

(٣)

وبعد سنوات من موت أبيه فجع فى أمه ، فعظمت مصيبته ، وفقد ينبوع العطف والحب الذى طالما نعم به ، ووثق بصفاته وخلوصه له فهزته هذه المصيبة وهدته ؛ وزادته شعورا بضعفه ونقمة على الحياة والاحياء .

حزن على أمه حياته ، فقال فى رثائها :

إن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

وقال فى رسالة إلى خاله ينعاها له « فلله الحمد ممزوجا به الدمع مستكاله من الوجد السمع » فأصحب حمده الله بدمعه ، وهـذا الحمد قد أثقله الحزن على سمعه .

(٤)

وكان فقيرا ، يغل عليه وقف لأهله ثلاثين دينارا كل سنة ، يعطى خادمه نصفها وله نصفها الباقى ، لكنه كان يستطيع أن يثرى لو أنه سلك منـادح الثروة ، وهو من أسرة علم وفضل ورياسة ووجاهة فى المعرة ، لهـا نسب عريق فى القضاء ، ومنها من ولى المعرة ، غير أنه كان حييا أبياً عظيم النفس لا يتكسب بالمدح ، ولا يقبل العطاء وكان إلى ذلك محسنا سخيا فإن الشاعر الفارسى ناصر خسرو زار المعرة قبل موت المعرى بعشر سنوات تقريباً وقال عنه إنه رجل عظيم الجاه فى بلده ، وذو ثروة ينفق منهـا على الفقراء ، ولكنه يعيش متقشفا زاهدا ، وفى شعره ونثره أدلة على أنه كان يهـدى إلى بعض الأدباء ، كقوله وهو فى الخمسين من عمره يعتذر لفقيه عن صغر هدية فياليتنى أهـديت خمسين حجة مضت لى فيهـا صحتى وشبابى وقلت له : فاترك ثلاثين أسودا متى ما تكشف تلف غير لبـاب لعل الذى أنفذت يكفيك ليـلة لإسـباغ طهرحان أو لشراب

٥

هذا إلى إفساد الحياة فى عصره ، وهو ذكى يدرس ويستقصى ، حساس يرى ويرثى ، درس طبائع الناس فأحسن درسها ، وبلا نفوسهم فأجاد بلاءها فلم ينتج له الدرس إلا شرا .

الدويلات الإسـلامية تتحارب ، والمسلمون والروم يتبادلون النصر

والهزيمة ! والحكام يظلمون الرعية ويغتصبون أموال الناس ، والساسة خداعون جهال يستعبدون الرعايا ويستفون قوتهم وجهودهم .

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

...

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف منى ومن زمن رياسته خساسة

«٥»

إن العراق وإن الشام مذ زمن صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الأنام شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم إن بات يشرب خمرا وهو مبطان

والقضاة يحكمون بالجور ، وكان الأحرى بهم أن يحكموا بالقسطاس ويدفعوا البلاء عن المستضعفين :

وأى امرئ فى الناس ألفى قاضياً فلم يمض أحكاما كحكم سدوم

ورجال الدين قد اتخذوا الدين حرفة ، واصطنعوه وسيلة إلى الكذب والكسب ، ولا أثر له فى نفوسهم ، فالواعظ ينهى عن الراح صباحا ويعاقرها مساء :

رويدك قد غررت وأنت بحر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
يقول لقد غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهن الكساء

والخطيب الواعظ يخوف الناس يوم القيامة وهول الحساب ، وهو ينكر فى نفسه القيامة والحساب :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل فى النفوس ذهولها

والفقهاء انصرفوا عن أسرار الشريعة ولبابها إلى مماحكات لفظية لا طائل وراءها :

وقالوا فقيه والفقيه نموه وحلف جدال والكلام كلوم
وحتى الزهاد كاذبون فى تزهدهم

لعمرك ما فى عالم الارض زاهد يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع وأخلاق الناس جميعهم منحلة ، يفعلون القبيح والمنكر ويحيون على الخداع والغش والمكر والقسوة كما سيجىء ولذلك ذمهم كلهم بقوله :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدا وأكبادكم سود وأعينكم زرق

ومما يستدعى التأمل انه حمل على الأدباء وحملهم وزر هذا الفساد ، وهم فى رأيه الدعاة إليه :

وما أدب الأقوام فى كل بلدة إلى المين إلا معشر أدباء

« ٭ »

أما شعرت بأنها لا تقتنى خيرا وأن شرارها شعراؤها
أثرت أحاديث الكرام بزعمها فأجاد حبس أكفها إثراؤها

« ٭ »

بنى الآداب غرتكم قديما زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسباب

(٦)

ثم هو على ذلك كله قرأ من كتب الفلاسفة ما وافق هواه ، فاشتد بغضه للدنيا ، وسوء ظنه بالناس ، حتى إنه لما تحدث بحفاوة أهل بغداد

بوداعه وحزنهم لفراقه وعرضهم عليه المال شك فيما فعلوا أكان رياء أو وفاء، ونحن نعلم أنه درس الفلسفة اليونانية فى أنطاكية واللاذقية ثم ألم بها فى بغداد ثم درس الهندية فى بغداد أيضا، وبغداد بعد فتح السند كانت تتروى من هذه الفلسفة يحملها اليها المترددون هنا وهناك للتجارة أو السياحة ويفجر جداولها أولئك الذين ترجموا عن الهندية منذ عهد المنصور، وهى تشتهر بالزهادة وازدراء الحياة وتعذيب الجسد لتنقية الروح والشفقة على الحيوان وتقديسه فى بعض الأحيان.

ووقف على الفلسفة الفارسية، وقد ثقفها العرب منذ خالطوا أهل فارس وترجموا عنهم، وقد قرأ شاعرنا ماترجم عنهم فى السياسة والفلك والأخلاق والقصص، فلما شخص إلى بغداد مازج بعض الفرس وتأثر بهم، فليس عجيبا أن نجد الفاظا فارسية فى شعره كقوله:

إذا قيل لك اللسه مولاك فقل (آرا)

أى نعم.

على انه بعد هذا كله عالم فاحص دارس، اطلع على الاديان كلها فدرس الاسلام والنصرانية واليهودية، وعرض لبعض قضاياها فى لزومياته.

(٧)

لكننا نجد فى الحياة عميا فقراء مشوهين، وهم مع هذا كله مبتهجون بحياتهم ينالون من لذاتها، وينهلون من متعها، فلم لم يحاول أبو العلاء أن ينال وينعم؟ ولم سخط الحياة هذا السخط؟ الحق إن ذلك يرجع أيضا إلى مزاجه الخاص الذى يألف الحزن ويأنس به ويركن إليه، وتسنح له فرص الابتهاج فيفر منها فرارا، ويرى العالم كله رزايا وأشرارا.

فقد كان بشار أعمى ولكنه جنح إلى المجانة والخلاعة، واستمتع بالحياة ماشاء أن يستمتع.

وكان شوبنهور فيلسوف التشاؤم فى العصر الحديث بصيرا ، صحيح الجسد ، ثريا ثراء واسعا ، لكنه كان ينظر إلى الحياة نظرة سوداء كأبى العلاء ، « فالعالم شر كله ، فأينما توجهت الفيت عراكا وقتالا ومنافسة ، وليس الإنسان إلا ذئبا للانسان ، وهو تعس إذا تزوج وتعس إن لم يتزوج وخير للعالم أن ينقطع النسل وتنتهى الحياة » والحياة فى نظره « جحيم يفوق جحيم دانتى » .

ولقد تشابه الرجلان فى العزوبة ، وسوء الرأى فى الناس ، والبرم بالوجود والتجنى على المرأة .

واتفقا فى أن التشاؤم تابع من نفسيهما وإن كانا متأثرين بعوامل أخرى خارجه عن قدرتهما تتشابه قليلا أو كثيرا ، فقد انتحر الدشوبنهور واعوج سلوك أمه ، ولم يجد ما يزجى به فراغه غير النظر والتأليف ، فلم يتزوج ولم يلد ، ولم يزاول عملا يلهيه عن مآسيه ، فضجر بالحياة وسئم الناس .

على أن فساد الحياة الاجتماعية يؤرث نار السخط فى نفوس الساخطين فلما خاب الأمل المنوط بالثورة الفرنسية بعد زلزلة الأرض بحروب نابليون أطبقت خيام التشاؤم على أوربا ، فأن موسيه فى فرنسا وبيرون فى انجلترا وشوبنهور وهينى فى ألمانيا ، ولما فسدت الحياة الاجتماعية والسياسية فى عهد أبى العلاء رجع فى جوها الخانق نغمه الحزين

مظاهر هذا الزهد

(١)

كان لزهده مظاهر أخذ نفسه بها وتشدد فى ذلك ، فاعتزل الناس عن روية وعقيدة ، وقد اعتزم اعتزالهم بعد أن استشار أصدقاءه ببغداد قبيل

رحيله منها ، يدلنا على ذلك رسالة كتبها إلى أهل المعرة ينهاهم عن الحفاوة بقدومه ويخبرهم بعزمه على العزلة .

لكنه لم يستطع تحقيق ما اعتزم ، فالمعجبون به من الخلان والطلاب يطيرون إليه وهو لا يردهم عن مجلسه حياء منه ، على أنه عالم يستطع أن يحبس نفسه كما انتوى ، ولم يلبث أن اشتغل بالتعليم ، ومهما يكن من شيء فقد كان لا يخالط الناس هذا الخلاط الذى نعرفه ونألفه .

أما سبب ذلك فسوء رأيه فيهم ، فهم ينافقون ويخادعون ، يبدون الطيبة والنباله والطهارة ولو اطلعت على ما فى قلوبهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا

يلقاك بالماء النمير الفتى وفى ضمير النفس نار تقد
يعطيك لفظا لينا مسه ومثل حد السيف ما يعتقد

« ✡ »

يروقك مظهرهم ويسوء مخبرهم ، وأكرمهم خلقا عبد لمنفعته ، وأشرف من أشرفهم صلداء جلمود لا تعتدى ولا تفترى

يحسن مرأى لبنى آدم وكلهم فى الذوق لا يعذب
مافيهم برولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

البعد عنهم نجاة من أمراضهم ، ومخالطتهم تفسد العقل لأنهم متخلفون فى الفهم ، وتلبس الدين بالخرافة

بعدى من الناس برء من سقامهم وقربهم للجحا والدين أدواء

« ✡ »

والخير فى تجنبهم لتأمن شرهم ومقتهم ونكرانهم الجميل .

وجانب الناس تأمن سوء فعلهم وأن تكون لدى الجلاس مقوتا
لابد من أن يذموا كل من صحبوا ولو أراهم حصى المعزاء ياقوتا

واللبيب الحازم من لا يكشف لهم عن سر عقيدته

لا تخبرن بكنه دينك معشرا شطرا وإن تفعل فأنت مغرر
واصمت فإن الصمت يكفى أهله والنطق يظهر كامنا ويقرر

ولا خير فى العالم كله ، وشر ما فيه ناسه

قد فاضت الدنيا بأدناسها على برایاها وأجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها [1]
وكل حى فوقها عالم وما بها أظلم من ناسها

(٢)

لم نقم أبو العلاء من الناس وباعد ما بينهم وبينه ؟

أكان السبب سوء خلقهم فحسب ؟ أحسب أن المجتمع الطويل العريض فى الشام والعراق لم يخل من أفراد قلة لهم خلق ودين فيرضى عنهم أبو العلاء فلابد أن يكون هناك سبب آخر لضيقه بهم ، وانما يتصل هذا السبب برأيه فى أصل الفطرة الإنسانية .

الرأى فى الفطرة الانسانية قضية مشكلة لها تاريخ ، فما نزعات الفطرة الأصيلة أالخير أم الشر ؟

أما سقراط فقد ذهب إلى خيريتها ، فنفس الطفل كالصفحة البيضاء مستعدة لأن تتأثر بالخير والشر ، وأما فلوطين الفيلسوف المصرى فرأى أن الفطرة شر ، لأن النفس جوهر مستقل مجرد هبطت من العالم العلوى إلى العالم المادى فاصطبغت بالشر ، ويمكن التسامى بها بتصفيتها من اوضار المادة وحرمان الجسم

(١) مغزلها

من لذاته ، وتجريده من زخارف الحياة ، وأخذه بالصوم ، واعتزال الناس ، وعندئذ تتهيأ النفس للاتصال بالعالم العلوى والأنس بمبدعها .

ثم كانت لهذه الفكرة دولة وصولة فى القرن الثامن عشر ، فقد اعتنقها وغلافيها اليسوعيون والينسيون حملة ألوية التعليم ، فقد ألفوا الكتب وشادوا المدارس وسنوا نظم التعليم متأثرين بأن الفطرة شر ، وصلاحها بالعقاب الصارم والثواب المغرى ثم شاء الله أن يزلزل روسو دعائمهم بذلاقة لسانه ، وخلابة بيانه ، فوصلت دعوته إلى أعماق النفوس العاقلة وكثر مؤيدوه ، وكتب لرأيه النصر .

لكن كانت جاء بعد روسو فأثبت أن الطفل منذ يولد إلى أن يبلغ سنا معينة خال من الميل إلى الخير والشر لأنه لا يفكر فيما يقول أو يعمل

على أن دستورنا الصحيح الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقرر أن الطفل يولد مستعدا للخير والشر معا « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

فمع أية وجهة من هذه أبو العلاء ؟

لقد نخال أنه يصح ذهابه إلى أى مذهب إلا إلى خيرية الفطرة وهو من علمنا سخطا وتشاؤما وذما للناس وطباعهم ، فالإنسان فى رأيه شرير بطبعه ومن العسير إصلاحه وكلف بهذه الفكرة يرددها فى شعره ونثره ، وكلف بها يطبقها على حياته ومعاملاته ، فزهد واعتزل وأعزب ، وقد افتن فى ذم الإنسان وإن كان لم يبرىء نفسه من اللؤم والهوان :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فإنهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بنى حواء يشبهنى فبئس ما ولدت للناس حواء

وفائدة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

«٠»

ولم يكن الناس يوما صلاحا ففسدوا أو أتقياء ففجروا ، انما هم من طينة الشر خلقوا .

وهكذا كان أهل الأرض مذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

وفى محاورته للغراب، يذم الإنسان بالجور ونكران الجميل

جريا غراب وأفسد لن ترى أحدا إلا مسيئا وأى الخلق لم يجر
خذ من الزرع مايكفيك عن عرض وخاول الرزق فى العالى من الشجر
لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت ثم اقتربت لما أخلوك من حجر

(٣)

تسخط أبو العلاء حياته وتبرم بوجوده ، وكان للدنيا قاليا ، لم يزل يسبها ويقرعها باللوم حتى صار أكثر الشعراء لها ذما ، لذلك تمنى للوليد ألا يولد وللحى أن يفنى :

فليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

بل لقد كان الخليق بهذا العالم ألا يوجد .

خير لآدم والخلق الذى خلقوا من ظهره أن يكونوا قبل ماخلقو

والدنيا حقيرة لا نستحق هذا التكالب

أصاح هى الدنيا تشابه ميتة ونحن حواليها الكلاب النوابح
فمن ظل منها آكلا فهو خاسر ومن راح عنها ساغبا فهو رابح

«٠»

لاتلبس الدنيا فإن لباسها سقم وعر الجسم من أثوابها
ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

أغنى الأنام تقى فى ذرا جبل يرضى القليل ويأبى الوشى والتاجا
وأفقر الناس فى دنياهم ملك يضحى إلى اللجب الجرار محتاجا

ولهذا رأى أن نبتر هذه الحياة باعرضنا عن النسل فهو جناية على ابنائنا البرآء لأنه يلقيهم فى عالم مسجور بالشرور ، وقد أوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبى عـــلى وما جنيت على أحد

(٤)

فهو لم يتزوج ، وينصح بالإعراض عن الزواج ، ولكن ماذا يفعل الرجل الصحيح الجسد إذا ألحت عليه الغريزة ؟

ايجترح إثما أم يتزوج ؟ يجيب أبو العلاء بأن له أن يتزوج وعليه ألا ينسل ، وأى عاقل يبيح لنفسه الإنسال للشقاء ثم للفناء ؟

نصحتك لا تنكح فإن خفت مأثما فأعرس ولا تنسل فذلك أحزم

وكل امرىء تجرع فى هذه الحياة كئوسا مرة ، واصطلى بلهيب الشدائد مرة بعد مرة ، فمن العدل ألا ينسل فينتقم من الأبرياء والمستورين وراء حجب الغيب

والقاك فيها والداك فلا تضع بها ولدا يلقى الشدائد والنكرا

هذه وجهة ، وثمة وجهة أخرى فالذرة تشقى

صحبتك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يحن مصممات
وإن تعط البنات فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ويلقين الخطوب ملومات

وهو على تحرجه من النسل رحمة بالأبناء ، وخشية من مشقاتهم كان سىء بالمرأة . بشك فى حصانتها ووفائها لزوجها :

وما تمنع الخود الحصان حصونها ولو أن أبراج السماء حصونها

***

لاتدنون من النساء فان غب الأرى مر

وكراهته للنساء جعلته يؤثر موتهن ويعتده نعمة

ودفن الغانيات لهن أولى من الكلل المنيعة والخدور

ويفضل حياة الرهبان

ويعجبني عيش الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

(٥)

كان رقيق القلب رحيما . يرى أن ذبح الحيوان قسوة وعدوان ، وفيه يتم الولد أو تثكل الوالدة ، ولعله تأثر بمذهب البراهمة الذين يحرمون الحيوان ونتاجه

ولهذا المذهب النباتي في عصرنا أنصار لهم حججهم ، ولخصومهم ردود وحجج ، ومن المناسب أن نلم ببعض مايتذرع به النباتيون في إعجال ، هم يرون أن أمعاء الانسان طوال ولكن أمعاء أكلة اللحوم قصار مثلا يطول مكث اللحم بها فيتعفن ويضر ، وأن في النبات العناصر الغذائية كلها ، وإن الاقتصار عليه ينجي من أمراض قد ينقلها الحيوان ، وأن ذبح الحيوان قسوة وعدوان ، وحرمانه نتاجه ظلم وجشع ، ثم أن النبات أرخص من اللحم .

اعتنق أبو العلاء هذا المذهب خمسا وأربعين سنة عن عقيدة ، ودعا غير مرارا في شعره إلى متابعته ، فنهى عن أكل السمك واللحم والبيض والطير وعسل النحل لأن ذبح الحيوان تعذيب ، واغتصاب نتاجه ظلم :

فلا تأكلن ماأخرج البحر ظالما ولا تبغ قوتا من غريض [1] الذبائح

(١) طرى .

ولا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغوانى الصرائح (١)
ولاتفجعن الطير وهى غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب(٢) النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح (٣)

***

لاأجمع الأم بالرضيع ولا أشرك هذا الغرير(٤) فى اللبن

عاش نباتيا يمنع نفسه اللحم ، ولايشرب اللبن ولا يذوق الجبن ولما مرض مرضه الأخير أشار الطبيب أن يطعم فروجا ليتقوى به فلما قدم إليه أمسكه وقال : استضعفوك فأهانوك ، هلا قدموا شبل الأسد

لكن المعرى لم يحرم الحيوان ونتاجه تحريما ، وكيف وهو يعلم أن الله أحله ؟ ويعلم أن الحيوان يتكاثر مطردا فلو خلى وسبيل لضاقت به الارض بما رحبت ولنفدت الأقوات؟ إنما استبشع ذبحه والسطو على ثمراته ، ورحمه ورأف به ، وعسى أن يكون قد أراد بذلك حسن المثوبة ، ودليلنا على أن الباعث الرأفة وحدها قوله :

تسريح كفى برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

وسئل عن تحريمه الحيوان وقد أحله الله فقال إنه تركه زهدا ورحمة .

ورد على من ادعى أن ترك اللحم ذميم بقوله : « ولو أخذ بهذا المذهب لوجب على الانسان ألا يصلى صلاة إلا ماافترض عليه لأن مازاد على ذلك أداه إلى كلفة والله تبارك وتعالى لايريد ذلك ولوجب أن الذى له مال كثير إذا أخرج عن الذهب ربع العشر لايحسن به أن يزيد على ذلك ...

فهو يعرف أن الله تعالى احله وأباحه ولكنه يتوقى عواقب الذبح واغتصاب النتاج .

(١) الحسان (٢) العسل الأبيض الغليظ (٣) العطايا (٤) ولد البقرة والنعجة والماعز

وله دفاع نثرى عن رأيه هذا كنت أريد أن أثبته هاهنا لولا الإطالة

وبعد فقد لقيه رجل فسأله: لم لا تأكل اللحم ؟ قال : أرحم الحيوان قال فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فان كان لذلك خالق فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطبائع هى المحدثة لذلك فما أنت بأحذق منها » فسكت

٦

كان لا بد لهذا الشاعر الفيلسوف المرزوء المتبرم أن يدين بالجبر ، ولعله ساءل نفسه لم هذه الفوضى الضاربة فى أعماق المجتمع ؟ ولم هذا التباين بين أفراده وطبقاته ؟ وهل تخير الأشقياء فى حياتهم الشقاوة ؟ ثم هل آثر هو لنفسه البلوى والعمى والفقر والقبح وفقدان النصير ؟

أما لو بوده لنعم بنور عينيه او سعد بثروة واسعة واختال فى برد الجمال ولكان ظهيرا ونصيرا لكل ضعيف وفقير ، ولكن هكذا اختير له وهكذا وجد نفسه ، ولا حول له ولا طول فى تغيير الواقع وإن جهد ، فما بال الناس يجهلون الحق ويجحدون الواقع فينكرون انا مسيرون ؟

آمن بالجبر ونص فى مقدمة اللزوميات انه مجبر على نظم هذا الديوان وانه الفه بتأثير قوة لا يعرف حقيقتها وكرر الجبر فى مواضع شتى ، واحتج له ، وعزا إليه كل عمل فنحن نستهل على الدنيا بغير اختيار ونفارقها على اضطرار

المرء يقدم دنياه على خطر بالكره منه ويتآها على سخط

***

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تخيير

***

خرجت إلى ذى الدار كرها ورحلتى إلى غيرها بالرغم والله شاهد

فهل انا فيما بين ذينك مجبر على عمل ام مستطيع فجاهد

٧

(١) وهذا النظام القاسى الذى التزمه أبو العلاء حمله على الشظف من العيش والخشن من الحياة فقنع بما نالت يداه

قنعت نخلت أن النجم دونى وسيان التقنع والجهاد

لم يجالس الناس على مائدة ولم يره الناس يأكل لأنه كان إذا أراد الطعام آوى إلى نفق له فيأكل فيه . وكان طعامه العدس وحلواه التين

يقنعنى بلسن يمارس لى فان أتتنى حلاوة فبلس

(٢) وكان يلبس ثياب قطن غلاظ ، ويفترش اللبد فى الشتاء وحصر البردى فى الصيف

(٣) وجانب الخمر وحرمها عقلا ودينا وصحة وألف فى ذمها كتابا سماه (حماسة الراح)

يابدوى اتق المدامة إن الخمر باتت كثيرة الأبن

آليت ماسمحت أخا بخل يوما ولا شجعت أخا جبن

(٤) وقضى حياته متزمتا مكتئبا يرى أن الضحك جنون

وضحكنا وكان الضحك مناسفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعادله سبك

(٥)

فافرق من الضحك واحذر أن تحالفه أما ترى الغيم لما استضحك انتحبا

احمد محمد الحوفى

المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية